Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استهل أبو البقاء قصيدته بتقرير قاعدة إنسانية مستمدة من واقع الحياة نفسها ومؤداها أن كمال أى شيء بداية نهايته ، ما يكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة فتضعفه وهنا على وهن ، حتى تسلمه إلى الفناء ، وهو أمر يصدق على الحضارات والأمم كما يصدق على الأفراد . فلا يغرن إنسان جبروته مهما عظم ، ولا تبطرن أمة قوتها مهما بلغت ، فسبيل ذلك كله إلى فناء . . كله إلى زوال .

ويضرب الأمثال لما قرره : ذهب ملوك اليمن فما بقى لهم تاريخ ، وأتى الزمان على حصون إرم فما أبقى منها على حجر ، وذهب بحكم ساسان وكسرى ، وبملك سليمان ومدخرات قارون ، أتى عليهم جميعًا فما عادوا غير تاريخ يروى شاحبًا ، أشبه بحلم رآه نائم فما يتذكر منه إلا بقايا باهتة ، وفجائع الدهر ألوان ، وكل ذهب بسبب ، وَفنَى فى ظروف تغاير الآخر ، ولكل حادث أحوال تخفف من وقعه ، أما فجيعة الإسلام فى الأندلس فقاصمة .

ويفصل ما أصاب الأندلس : لقد دُهيت الجزيرة بما لو سقط على أحد لذهب به ، أو على ثهلان لهدّه ، لقد سعدت بالإسلام وارتقت ثم أصابتها العين ، وتوالت عليها البلايا ، وانحسر الإسلام عن أقطارها ومدنها ، عن بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان قرطبة وإشبيلية ، وهى قواعد الإسلام الحصينة ، ومدنه الزاهرة .

ويصور أسف الناس الحزين على بلاد عمها الكفر ، وأقفرت من الإسلام ، وصارت مساجدها كنائس ، تزخر بالنواقيس والصلبان ، بعد أن كانت عامرة بالعلم والإيمان ، مما يبكى حتى الجماد من محاريب ومنابر ، ويذكر بقايا المسلمين فيما ظل لهم من مدن ، وغفلوا عن الأحداث فما يتعظون بها ، والعدو من حولهم متربص بهم ، ويحث أولئك الذين اطمأنوا على دنياهم الواسعة ، فى مملكة غرناطة المزدهرة ، أن يكون لهم فى ذهاب إشبيلية عظة ، وكانت قبل دنيا عريضة من اللهو والترف واقتناص الملذات . إن فجيعة الإسلام فى الأندلس أنست الناس بهولها كل ما أصابهم قبل من كوارث وفى أى مكان ، وستعلو عن النسيان على امتداد الزمان .

ثم يتجه إلى مسلمى أفريقية ، أصحاب الخيل الضامرة الدريرة كأنها عقبان ،